الفوتغرافيـــــــــا والادب

طالعتنا الصحف فى أواخر شهر مارس الفارط ، بنبأ انتحار المستر جورج ايستمان المليونير الامريكى ، مخترع آلة التصوير الفوتغرافى ، المعروفة باسم كوداك ؛ ولمناسبة انقضاء أجل هـذا المخترع ، رأيت أن أنشر على صفحات هـذه المجلة المحبوبة من الجميع ، شيئاً عن الأثر الباقى الجميل ، الذى قد أحدثته الفوتغرافيا فى فن الأدب العربى الحديث.

إن مزايا انتشار التصوير الفوتغرافى بيننا لم تكن محصورة فى تخليد ذكرى المشاهد التاريخيـة النادرة ، وصور الأشخاص ، أو ترقية فن الصحافه فحسب ؛ ولكن قد أصبحت لانتشار التصوير الشمسى مزايا أخرى ، بمعنى أنه قد أدخل على آدابنا لوناً جديداً من ألوان الشعر العصرى ، لم يكن معروفاً فى ماضى الشعر ؛ وهذا الشعر الجديد ، هو ما تعود شعراؤنا كتابته على صورهم الشمسية ، سواء أكان ذلك للاحتفاظ بها لديهم ، أو لاهدائها إلى أصدقائهم ، ومن هذا الشعر أيضاً ما يكتبه الشعراء على صور أولئك الاصدقاء ، تقديراً منهم لوفائهم .

وهو كما أسلفت ضرب من الشعر جديد ، ولا عهد لأدبنا العربى به قبل ٤٨ سنـة ، أعنى قبل أن يخترع المستر أيستمان الفوتغرافيا فى عام ١٨٨٤ م .

وإنى سأعرض فيما يلى نموذجات وقع عليها اختيارى من هذا الشعر الفوتغرافى:

صورة من غير روح !

وفى طليعة الذين نظموا فى هذا المعنى ، أمير الشعر والشعراء أحمد شـوقى بك ، فقـد بعث يوماً لأحد أصدقائه بصورته الشمسية بعد أن كتب له عليها :

سعت لك صورتى وأتاك رسمى ... وسـار الظل نحوك والجهـات
لأن الروح عندك وهى أصل ... وحيث الروح تسعى الملحقات
وهبها صورة من غير روح ... أليس من القبول لها حياة ؟
أخاف أن تنساه !

وقد أتيح لى أن أشاهد صورة المرحوم ولى الدين يكن ، مهداة منه لصديقه فقيد الصحافة الكاتب الفكه ، الأستاذ سليم سركيس ، وعليها هذه الأبيات الرقيقة ، مكتوبة بخط ولى الدين البديع وهى :-

هى صورة لأخ أسوت كلومه ... ولقلما واسى سواك أخاه
يهديكها لا خوف نسيان له ... ما مثل قلبك تنقضى ذكراه !
لكن أتانى منك فضـل أخوة ... فأخاف يا (سركيس) أن تنساه !

الحياة سباق !

حدثنى صديق مصرى قال : كان شيخ الأدباء اسماعيل باشا صبرى ، يزور فى ذات يوم منزل صديقه الأستاذ سليم ، الذى تقدم ذكره ؛ وفى الوقت الذى جلس فيه الاديبان الكبيران يتباحثان فى المواضيع الأدبية ، ويخوضان بحور الشعر منتقدين ومقرظين ، كان الطفل «أنور» نجل صاحب الدار ، يلعب بدوره أمامهما بكرته يدحرجها ثم يثنى يمدوخلفها ، ويتعثر ويثب فى خفة ورشاقة ، كأنه رشأ غرير ، على وعناء الرمال !! وضحكات الطفولة الناعمة تملأ شدقيه ، وتتدفق من بين شفتيه ، وبعد أن يظفر بألعوبته يستأنف دوره من جديد .

وقد نبه لعب هذا الطفل دوره شيطان شاعرنا صبرى من غفوته ، فطلب إلى صديقه أن يقدم إليه صورة طفله « أنور » التى كانت تزين أحد جدران قاعة الجلوس :

فأتاه بها فتناولها وكتب تحتها هذه الأبيات التى أملاها عليه شيطانه العبقرى الظريف ، هذا إذا صح أن الشياطين هى التى توحى إلى الشعراء بما يقولون ، قال :

هذا شبابك ياسليم تزينه تلك الخلال الغر والاخلاق
حاكاك «أنور» منلما حاكيته فيما مضى فتبارك الخلاق
أنت الذى علمته نهب الخطى وأريته أن الحياة سباق

وقد ورد ذكر هذه الأبيات فى المحاضرة التى ألقاها الأستاذ محمد صبرى ، عن اسماعيل صبرى بالجامعة المصرية .

رق دينى ورق مالى

الأستاذ بشارة الخورى صاحب جريدة البرق البيروتية ، شاعر من شعراء الشام الافذاذ ، وقد قال عنه أحد الأدباء ، إن لم يدم جريدته « البرق » فروحه كالبرق تشيقك وتروعك ! وأقول إنك لواجد فى أبياته الآتية التى نشرت قديماً تحت صورته ، شيئاً من روعة تلك الروح الشائقة ، قال والأسى العميق يساور نفسه :

عشت شقياً ولم أبال ولم يمر الهنا ببالى
أعلل النفس فى نهارى وألزم الدرس فى الليالى
رق شعورى فرق جسمى ورق دينى ورق مالى

صورة الحبيب

وقال الأستاذ العقاد يناجى صورة حبيبه بأبيات وجدانية منها :

كملت صنعة المصور فيه وتحدته صنعة الرسام
هى نور من السماء وظل وارف للجمال والاطهام
ما أحيلى ابتسامة فيه تبقى وقليل جداً بقاء ابتسام
إيه يا صورة الحبيب ألمى وأثيرى لبالى المستهام

خذ فكرتي

وقال الأستاذ أمين ناصر الدين يناجي رسماً راق في نظره ويندب نكد طالعه :

أراك يارسم لاتنفك مبتسما ... أذاك شأنك أم ذوق الذي رسما
تستقبل الصبح جذلاناً بلا سبب ... ولا يسوؤك أن تستقبل الظلما
كفاك يارسم فخراً أن مثلك لم ... ينقل لحاجته فوق الثرى قدما
كفاك عزة نفس أن تدوم ولا ... تأتيك منة إنسان قداحتكما !
أراك تفصح عما فيك من طرب ... وإن عدمت لساناً ناطقاً وفما !
لك الطبيعة صفو العيش قد قسمت ... وضده وجزيل اليأس لي قسما
كن موضعي ولأكن رسما فذلك لي ... خير وخذ فكرتي والطرس والقلما

نفع بلادي !

وقد كتب صديقنا ومواطننا المحبوب، الأستاذ توفيق أحمد الطالب الآن بالجامعة المصرية قسم الحقوق ، هذه الأبيات السامية المعنى، على صورة صديق له تقديراً منه لوفائه ، وإعجاباً بقوميته، قال :

رمز الفضيلة قد نقشتك قبل ذا ... فوق العيون وفي صميم فؤادي
إن ضاع ذكر الحسنين فأنما ... ذكراك في الدنيا لغير نفاد
وإذا رجوت إلى البلاد سعادة ... فلأنت من أرجو لنفع بلادي

حتى الأفكار

وفي أثناء مدة إقامتي بالقاهرة من ١٩٢٨ إلى ١٩٣١ ، قد تكرم صديقي زجال مصر الأشهر، الأستاذ أبو الوفا محمود رمزي نظيم ، يوم تشرفت بزيارة داره بحدائق القبة ، في يوم ٥-٦-١٩٢٩ ، فأهداني رسمه الكريم ، بعد أن كتب عليه ارتجالا هذا الحمل من زجله الرقيق

أهدى المبارك ابراهيم ... ابن السودان صورتي تذكار
روحي وروحه متحدين ... في كل شيء حتى الافكار!

غضنفر في وثاق !

اعتدت منذ بضع سنوات مضت ، أن أجتمع إلى بعض رفاق لي، لنصرف أوقات الفراغ في مذاكرة الأدب ، وقراءة ما استجد من كتبه ، وفيما نحن مجتمعون، كعادتنا، ذات مساء لندرس كتاب الأخلاق عند الغزالي ، وقد وصل إلينا حديثاً ، لمؤلفه الدكتور زكي مبارك، اقترح على أحد الرفاق، أن أشطر الأبيات الثلاثة الواردة تحت صورة المؤلف المنشورة بالكتاب .

وقد أيد بقية الرفاق هذا الاقتراح، نسبة للتشابه الموجود بين اسمي والدكتور ، ولما لم أجد طريقاً للأفلات من هذا الاقتراح ، لمضايقتهم لي ، طلبت إليهم أن يمهلوني برهة ، ثم طفقت

أحلق بأجنحة الفكر فى سماء الخيال، أغازل بنات الشعر وأطاردها وأستعرضها ، وأخيراً قدمت لرفاق الأبيات مكتوبة بعد تشطيرها ، وقد أنالوها قسطها من النقد والتقريظ قلت :

«لم يعد رسمى ضئيلا »	كما ترون رفاق
ويبدو وجهى فيه	«كالبدر عند المحاق»
«إلا لأن الليالى »	قد بالغت فى شقاق
تباً لهذى الليالى	«وماأها من خلاق»
«صيرتنى فى بلادى»	مكبل الارهاق
أحكى بشدة يأسى	«غضنفراً فى وثاق !»

ولا يسعنى هنا إن أضع القلم قبل أن أعلق على هذه المقطوعة بكلمة وجيزة :

قرأت فى الجزء العاشر من هذه المجلة الزهراء ، حديثاً مع الدكتور زكى مبارك وجه فيه حضرة الكاتب للدكتور هذا السؤال: كيف ترى رسائلك القديمة التى كتبتها قبل أن تعمك الحياة بهذه الألوان الجديدة التى تبدو عليك؟ فأجابه الدكتور بما اختصاره :

إن تلك الرسائل قد احتملت نظراتى فى الفترة التى كانت تتعهد نفسى فيها حالة التطور ، ولا أكتمك أنى أرى أن هذه الرسائل قد احتملت آراء لم أتحول عنها حتى اليوم ، على أن بعضاً منها كانت تقعمه خيالات لاأستطيع أن أواجهها الآن دون عاصفة من الضحك الوقور ؟

وبناء عليه أقول: إنه من المحتمل أن يكون الدكتور قد درج أبياته هذه — التى اقترح علينا تشطيرها — فى فاتحة آثاره الأدبية التى أصبح يطالعها اليوم، وهو يهتز من الضحك من نفسه!

كيف لا وهو يأبى أن يمثل ذاته فى البيت الأخير بأقل من ليث هصور ؟ ! أعنى وحشا مفترسا ، لاموضع فى قلبه للعواطف التى تواطأنا على تسمية بعضها بالشفقة والرحمة والوداعة والايناس !

يقولون إن الانسان مدنى بالطبع ، وأنا أقول ومتوحش بالطبع أيضا ؟! ولكنه كلما تعمق فى بحر العلم الصحيح ، كلما سمت مداركه ورقت شمائله ودق إحساسه، وأصبح لايرى شيئا من الفضل فى تشبيه نفسه « وهو ذلك الانسان المتمدين العالم » بأحد الوحوش الضارية المخيفة التى كانت تعيش مع أسلافه وآبائه الأولين ، فى ظلال الغاب جنباً لجنب فى فجر الحياة !

ولكنى أرى على الرغم من إرتقاء عقل الانسان ، وتفننه فى مختلف أنواع العلوم والمعارف ، قد يأخذه الحنين فى بعض الاحايين إلى التخلق بعاداته الوحشية القديمة الموروثة ، وكثيراً مايتجلى أثر ذلك الحنين إلى التوحش فى أفعال أعرق الناس فى المدنية وأقوالهم !!

أم درمان (سودان) المبارك ابراهيم

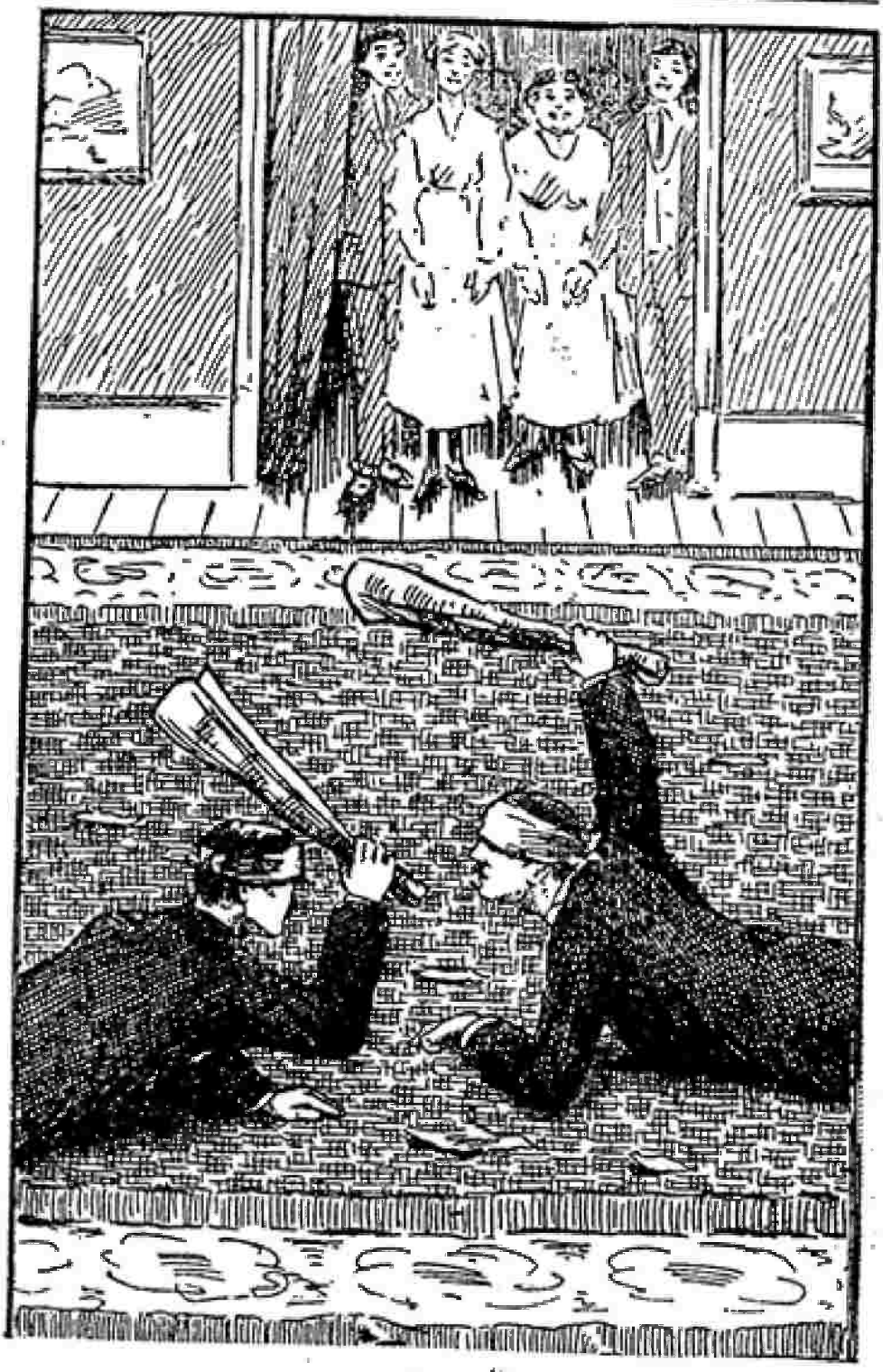

أأنت هناك ؟ ؟

[انظر التسلية المنزلية ص ١١٣]